تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات واصابه الكبر وله ذرية ضعفاء واصابها اعصار
فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فنبه سبحانه العقول
على قبح ما فيهما من الاعمال السيئة التي تحبط ثواب الحسنات وشبهها بحال شيخ
كبير له ذرية ضعفاء بحيث يخشى عليهم الضيعة وعلى نفسه وله بستان هو مادة عيشه
وعيش ذريته فيه النخيل والاعناب ومن كل الثمرات اذ اصابته نار شديدة فاحرقته
فنبه العقول على ان قبح المعاصي التي تحرق الطاعات بعدها كقبح هذه الحال ولهذا
فسره ابن عباس برجل عمل بطاعة الله زمانا فبعث الله اليه الشيطان فعمل بمعاصي
الله حتى احترق اعماله ذكره البخاري في صحيحه افلا تراه نبه العقول على قبح المعصية
بعد الطاعة وضرب لقبحها هذا المثل ونفاة التعليل والاسباب والحكم بحسن
الافعال وقبحها يقولون ما ثم الا محض المشية لا ان بعض الاعمال يبطل بعضا
وليس فيهما ما هو قبيح لعينه حتى يشبه بقبيح آخر وليس فيهما ما هو منشأ المفسدة
او مصلحة يكون سببا لها ولا لها علل غاية هو مفضية اليها وانما هي متعلق المشية
والارادة والامر والنهي فقط والفقهاء لا يمكنهم البناء على هذه الطريقة كما مروا
جمعوا عند التكلم بلسان الفقه على بطلانها اذ يتكلمون في العلل والمناسبات
الداعية لشرع الحكم ويفرقون بين المصالح الخالصة والراجحة والمرجوحة والمفاسد
التي هي كذلك ويقدمون ارجح المصلحتين على مرجوحها ويدفعون اقوى المفسدتين
باحتمال ادناهما ولا يتم لهم ذلك الا باستخراج الحكم والعلل ومعرفة المصالح و
المفاسد الناشية من الافعال ومعرفة رتبها وكذلك الاطباء لا يصح لهم
علم الطب وعمله الا بمعرفة قوى الادوية والاغذية والامزجة وطبايعها ونسبة
بعضها الى بعض ومقدار تاثير بعضها في بعض وانفعال بعضها عن بعض والموازنة
بين قوة الدواء وقوة المرض ودفع الضد بضده وحفظ ما يريدون حفظه بمثله
ومناسبه فصناعة الطب وعلمه مبنية على معرفة الاسباب والعلل والقوى
والطبايع والخواص فلو نفوا ذلك وابطلوه واحالوا على محض المشية وصرف
الارادة المجردة عن الاسباب والعلل وجعلوا حقيقة النار مساوية لحقيقة الغذاء
ليس في احدهما خاصية ولا قوة تتميز بها عن الآخر لفسد علم الطب وبطلت حكمة
الله تعالى بل العالم مربوط بالاسباب والقوى والعلل الفاعلية والغائية وعلى
قائم الوجود بتقدير العزيز العليم والكل مربوط بقضائه وقدره ومشيته واقداره وتكوينه
واعتذر بعض الاشاعرة عن نفيهم لذلك بان القول بقطع النظر عن تاثير الاسباب
في مسبباتها وجعل ذلك تاثير الله تعالى زهد واخلاص بان لا يجعل مع الله تعالى
في العالم خالق آخر ولا يخفى ان هذا اعتذار فاسد واعتقاد ردي وانما الاخلاص
والفوز والفلاح في الصدق والحق لا في الكذب والافتراء بما يعلم انه ليس كذلك

مع تضمنه لكثير من المفاسد كالجبر والظلم ودخلوا بعث الانبياء عن الفايدة ومخالفته
للعقل بما ورد في الكتب المنزلة واخبار الانبياء من ذكر الاسباب واسناد
المسببات اليها ومع ما في القول بخلق الاسباب وتفويض المسببات اليها
من الدلالة على قدرة الفاعل لذلك واتقانه لافعاله وبيان احكامها وعجيب
صنعها فانه يكون في كل واحد منها دلالة على قدرتين وحكمتين خلقها وخلق تاثيرها
وحصول الاحكام في خلقها وفي ترتب هذه المسببات عنها وكونها سببا لها
وجعل تلك الاسباب موثرة في مسبباتها وحصول تلك المسببات متقنة
محكمة عنها وهذا طريق مستقيم يوصل الى حقيقة توحيده تعالى وظهور قدرته ووفور
حكمته يوجب للعبد اذا تبصر فيه الصعود من الاسباب الى مسببها والتعلق
به دونها وانها لا يضر ولا ينفع الا باذنه وانه اذا شاء جعل نافعها ضارا ودواءها
داء او داءها دواء فالالتفات اليها بالكلية شرك مناف للتوحيد وانكار ان
تكون اسبابا بالكلية قدح في الشرع والحكمة والاعراض عنها مع العلم بكونها
اسبابا نقصان في العقل وتنزيلها منازلها ومدافعة بعضها ببعض وتسليط
بعضها على بعض وشهود الجمع في تفرقها والقيام بها هو محض العبودية والمعرفة
واثبات التوحيد والشرع والقدر والله اعلم **قال المص** رفع الله درجته

حسن الصدق النافع وقبح كذب الضار

وهو باطل لوجوه الاول انكروا ما علم كل عاقل من حسن الصدق النافع وقبح
الكذب الضار سواء كان هناك شرع اولا ومنكر الحكم الضروري سوفسطائي
قال الناصب خفضه الله اقول جوابه ان حسن الصدق النافع وقبح
الكذب الضار ان اريد بهما صفة الكمال والنقص او المصلحة والمفسدة فلا شك
انهما عقليان كما سبق وان اريد بهما تعلق المدح بالثواب او الذم بالعقاب
فلا نسلم انه ضروري بل هو متوقف على اعلام الشرع وكيف يدرك تعلق الثواب
وهو من الله الا بالشرع والاعلام من الشارع انتهى **اقول** قد تواردت بعض
الفضلاء المعاصرين في حاشيته على شرح اصول ابن الحاجب بهذا الجواب
لنا منه انه وجد ثمرة الغراب حيث قال ان الحكم بانا نعلم بالضرورة او بالنظر
ان الصدق النافع والكذب النافع يترتب عليهما الثواب او العقاب في العقبى
بعيد لان العقل لا يستقل في امر الاخرة انتهى وقد دفعناه قبل ذلك في تعليقاتنا
على ذلك الشرح بان الاستبعاد انما يتوجه لو اريد الثواب والعقاب بخصوصياتهما
المعلومة من عرف الشرع لكون الثواب عطية يستحقه العبد من الله تعالى دايما
في دار الآخرة واما اذا اريد به العطاء الذي يستحقه العبد من الله تعالى فلا اذ بديهة
العقل حاكمة بان العبد المطيع الفاعل لما يوجب المدح يستحق العطاء من المولى
الجواد او الحاكم كما اشرنا اليه سابقا وبعبارة اخرى نقول ان العقل حاكم قطعا

Copyright King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)